شيخ الشعراء .. أحمد الشارف

دكتور / ثابت محمد بدارى

يعتب علينا أشقاؤنا العرب أنهم فى الوقت الذى يعرفون فيه دقائق الحركة الأدبية فى مصر متجاوبين معها ، متابعين لها ، لا يكاد كثيرون منا يعرفون عن أخبارهم الأدبية شيئاً ولأشقائنا منا العتبى حتى يرضوا ، غير أنهم يعلمون أن السر فى ذلك لم يكن — بحال من الأحوال — نتيجة عدم اكتراث بما ينشئون من أدب وفكر ، أو قلة اهتمام بأخبارهم ، وإنما هو — فى المقام الأول — قلة ما يصل إلينا من أدبهم المنشور ، وعدم احتكاك الأدباء العرب بعضهم ببعض وبخاصة فى الوقت الذى شغل فيه كل قطر بشئونه الخاصة ، لعل هذا السبب وأمثاله قد زال بعد انتشار التعليم واستشعار الشخصية القومية ، والانفتاح على الفكر العالمى ، الأمور التى جعلت كل عربى ينهض بعبء نشر تراثه والتعـ ف بأدبائه وقد نهضت بهذا العبء الهيئات الثقافية الحكومية كما نهض بها أفراد مخلصون للأدب والفكر إخلاصهم لأمتهم ووطنهم ، وأذكر — على سبيل المثال فى هذا المقام — الأديب الليبى الأستاذ على مصطفى المصراتى الذى قام بجهد مشكور فى التعريف بالأدب الليبى ونشر كثيرا من آثاره ، ومن بين هذه الأعمال التى قدمها الأستاذ المصراتى جمعه أشعار الأديب الشاعر ، والقاضى الفقيه ، أحمد الشارف شاعر القطرين (١) : طرابلس وبرقة ، أوشيخ الشعراء (٢) كما لقبه قراؤه وأحباؤه فى ليبيا .

هـــو أحمد بن على الشارف ، قيل إنه ولد سنة ١٨٦٤ (٣) وقيل سنة ١٨٧٢ (٤) ، والأرجح أنه التاريخ الأول الذى سجله الأستاذ المصراتى فى مقابلة مع الشاعر نفسه فضلا على أنه تولى القضاء عام ١٩٠٤ فيكون عمره أربعين سنة حسب التاريخ الأول ويكون اثنتين وثلاثين حسب التاريخ الآخر الأمر الذى يجعلنا نرجح قول الاستاذ المصراتى .وقد ولد الشارف فى مدينة زليطن

إحدى مدن طرابلس الغرب بليبيا ، وكان أبوه رجلا صالحا من المنتمين إلى الطريقة الصوفية المعروفة باسم سيدى عبد السلام الأسمر ، وقد حفظ الشارف القرآن الكريم بالمعهد الأسمرى بزليطن ، ودرس الفقه وعلوم العربية فى زاوية «الفطيسى » . وفى كلية « أحمد باشا » بطرابلس حصل على العالمية . وقد تقلد وظائف مختلفة إذ اشتغل عقب تخرجه خطيبا ومدرسا «بمسجد بنى مسلم » بسلاته ثم جاز امتحانا سنة ١٩٠٤ ليعين نائباً للقاضى الشرعى « بالخمس » ، ثم جاز امتحـــانا آخر عـــين على أثره قاضيا بمدينة « تاورغاء » ومكث بها خمس سنوات ، ثم انتقل إلى « القره مانلى » وكانت الحرب الإيطالية قد نشبت فسار إلى طرابلس مع المجاهدين ولكنه أسر لأن الإيطاليين عرفوا أنه من المحرضين على قتالهم بشعره ، ولكنه تخلص من الأسر بمعونة الشيخ مسعود قاضى طرابلس ، فتوجه إلى « غريان » وكانت لم تقع بعد فى قبضة الاستعمار ، فانضم إلى المجاهدين فيها وعمل كاتبا لقاضيها ، وظل كذلك حتى انتهت الحرب العالمية ، وعقد صلح « بنيادم » بين الوطنيين والمستعمر الإيطالى سنة ١٩١٩ فعين على أثر ذلك قاضيا فى مدينة « سرت » ثم انتقـــل إلى مدينة « طراباس » وعين بها بموأزرة المجلس الاستشارى سنة ١٩٢٠ ، ولما أنشئت المحكمة الشرعية العليا سنة ١٩٢٢ عين عضواً فيها ، ثم رئيساً لها سنة ١٩٤٣ حتى أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٤٨ فلزم داره وقد تقدمت به السن ، وكف بصره ، حتى وافاه الأجل فى ١١ أغضطس ١٩٥٩ (٥) .

من خلال هذا العرض الموجز لحياة الشارف تبرز نقط هامة أولها حياته المديدة التى ناهزت التسعين وجعلته يعاصر مدارس شعرية مختلفة فى الوطن العربى والمهاجر ، عاصر شوقى وحافظ ومطران والكاظمى والرصافى وأضرابهم من شعراء المدرسة الكلاسيكية تلامذة الرائد محمود سامى البارودى ، كما عاصر شكرى والمـــازنى والعقاد أو جماعة الديوان المجددة ، التى وقفت فى وجه عمالقة المحافظة والاتباع ، بل وعاصر جماعة أبولو الشعرية ونزوعها إلى التجديد العاطفى والموسيقى وتطويرها المعانى والصور والأخيلة ، وامتد عمره إلى مدرسة الشعر الحر والواقعيين

من الشعراء العرب الداعين إلى التجديد فى الشكل والمضمون جميعا تبعا لما تمليه ظروف العصر السياسية والاجتماعية والفكرية ، ومايفرضه التزام الأديب بقضايا أمته والإنسانية التزاما عفويا أو التزاما عقائديا ، وقرأ شاعرنا - ولاشك - نفحات من الشعر المهجرى المهموس الذى نقل مشاعر إخواننا المغتربين فى المهاجر الشمالى والمهاجر الجنوبى ، ولابد أنه رأى ماجدده هؤلاء من ثوب الشعر العربى فى معانيه وصوره وأهدافه . هذه نقطة ، ونقطة أخرى نتبينها من خلال عرضنا لحياته وهى ثقافته ونشأته ، فقد نشأ نشأة دينية خالصة ، وأتقن علوم العربية والفقه والحديث ، ولم تتح له ثقافة أخرى غير هذه الثقافة التى تعمق جذور المحافظة والاتباع فى نفسه ، ولاتتيح له مهما اطلع على آثار المجددين ، وتنسم روحهم ، لاتتيح له الخروج على ماألف وتعلم ، وبخاصة إذا كان الجو الفكرى العام الذى يخيم على بلاده إبان الحكم التركى أو الحكم الإيطالى الغاشم أقرب إلى الجمود والفراغ منه إلى الحيوية والنشاط ، وماذا ننتظر من كلا الحكمين وكلاهما يعمل لمصلحته الذاتية فى قساوة واستبداد ، وظلم واضطهاد (٦) .

ومن خلال نشأته أيضا يمكن أن نتبين أنه كان مغرما بالوظيفة ، ساعيا إليها ومن ثم لانعجب إذا رأيناه فى بعض الأحيان مهادنا للعدو الإيطالى ، وكان — كما يقول الدكتور طه الحاجرى — بين أحد أمرين : إما أن يكبت شاعريته ، ويقطع مابينه وبين قول الشعر ، وإما أن يسلك بشاعريته سبلا أخرى ، ويمضى بعيدا عن التيار الشعبى فيجعل الشعر غزلا ومديحا ورثاء وحكمة ، دون أن يعرض لما يسخط المستعمر . ومثل شاعرية الشارف لاسبيل إلى كبتها ، فلتتخذ لها نهجا غير النهج الذى يعرض صاحبها للمخاطر أو يجر عليه المتاعب ، وهو بطبيعته يؤثر الهدوء والدعة (٧) . والحقيقة أن هذه المهادنة لاتفت فى شعر الشارف ، ولاتضعف وطنيته ، فله من الشعر الوطنى — كما سنرى فيما بعد — مايجعله من زعماء هذا اللون ، ولعله يذكرنا بموقف شاعر النيل حافظ إبراهيم الذى هادن الإنجليز فترة

اشتغاله بدار الكتب المصرية ، غير أن هذا الموقف لم يقلل من شأن حافظ الوطنى الغيور أخذا بمبدأ التقية ، ومراعاة الظروف القاهرة التى تتيح للمرء المهادنة والمناورة إلى حين .

نظرت فى شعر الشارف لعلى أقف على مقدمة نثرية أو شعرية يوضح فيها اتجاهه ومذهبه ، ويرشدنا إلى رأى له فى الشعر فلم أقف على هذه المقدمة التى نشدت وكيف يقدم الشارف لديوانه وهو لم يشهد طباعته وإخراجه ، بل كيف يقدم لديوانه وهو لم يتكلف حتى وضع عناوين لقصائده ؟ ! إذ أن هذه العناوين من وضع الأستاذ المصراتى كما أشار إلى ذلك فى مقدمته .

وهل على الشاعر من سبيل إذا لم يقدم لشعره أو لم يجعل له عناوين أو يقسمه أبوابا وفصولا ؟ ألم تصلنا دواوين أسلافنا دون مقدمات أو عناوين أو إهداءات ؟ !

فليس على شاعرنا حرج إذا هو لم يكلف نفسه عناء وضع مقدمة لشعره أو وضع عناوين لقصائده ، إنما عليه أن يشعر ويشدو بما يحس ويأمل ويرجو وعلى النقاد وحدهم تبعة الشرح والتوضيح وإبراز الاتجاهات والميول .

مع ذلك كله لم أيأس من معرفة اتجاه شاعرنا ومذهبه، وكيف يعترينى اليأس وشعر الشاعر بين يدى؟ وهل شعر الشاعر إلا حياته وفلسفته ، وآماله وآلامه ، وميوله واتجاهاته ؟ إذا لم يكن شعر الشاعر ذلك كله ، فهو بعيد عن روح الشعر ، فليس الشعر إلا الشعور الصادق ، وليس إلا حالة من حالات صاحبه تتمثل فيها ظروفه وعصره ومزاجه وميوله .

ونظرت فى هذا الشعر ، وبعد قراءة جادة ، ونظرة فاحصة، وقفت على قول الشاعر من قصيدة « الراديو » :

أدبى روحى وروحى أدبى كره اللائم فيه أم أحب
أدب قد حفل الجد به وهو فى الظاهر لهو ولعب
واقع يعتبر المرء به وخيال دب فى الذهن وهب
ورجاء زاد فى قسوته كلما غالبه اليأس غلب(٨)

ألا تنبىء هذه الأبيات عن مذهب واتجاه ؟ ألا تشف عن نظرة صادقة، وفهم واع لماهية الأدب وروح الشعر ؟؟

أدب الشاعر قطعة من روحه ، وروحه هى أدبه ، شيئان امتزجا معا، أدبه ذوب روحه ونفسه ، وما يعتلج فيها من آمال وآلام ، وأهواء ورغبات، وليس هناك أدب أروع أو أصدق من هذا الأدب الذى يصور نفس صاحبه فى غير ما تزمت أو تعنت وفى غير ما خوف أو رجاء .

ولكن هل يكتفى الشاعر بتصوير نفسه وأهوائها ، دون ما نظر إلى قومه وعصره ؟

هل يكتفى الشاعر بأن يكون شعره لهوا وتسلية ، ولعبا وأخيلة ؟

أعتقد أن الشاعر الحق هو الذى يصور آمال أمته وآلامها ، ويسهم فى عرض قضاياها ، ويرسم طريق نهضتها . ولكن على أن يكون ذلك كله من خلال وجدانه ممزوجا بشعوره، ملونا بحسه عن وعى وصدق تجربة وإحساس، ولا يكتفى بمجرد النقل والتسجيل والتقرير .

وهكذا كان شعر الشارف أو مذهبه فى الشعر :

أدب قد حفل الجد به ... وهو فى الظاهر لهو ولعب
واقع يعتبر المرء به ... وخيال دب فى الذهن وهب

ويزيد مذهبه توضيحا فيقول من قصيدة « تحية الفن » :

إن للفن مجالا وحده ... وجمال الفن من أقصى الأمانى
ومعان دبجت ألفاظها ... وهى قد نيطت بألفاظ حسان
لست أدرى عندما أنظمها ... عقد در كان أم عقد جمان
يتغذى العقل بالذوق كما ... تتغذى الروح من روح البيان
لايكون الشعب شعبا ميتا ... غائب الإحساس فى كل الأوان
يشبه الموتى فلا يؤلمهم ... لهب النار ولاطعن السنان (٩)

ماالفن؟وماشكله ؟ ومامضمونه ؟ وماأثره ؟ وما الغرض منه ؟ ماموقف الشعر من الوجدان الفردى والشعبى ؟ وماأ ثره على العقل والروح ؟ .

أسئلة يجيب عنها الشارف فى أبياته السابقة ، فالفن أو الشعر أقصى مايتمناه المرء لأن جمال الفن لايعد له جمال ، والشعر أرقى الفنون وأسماها ، ويدلى الشارف بدلوه فى قضية اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون ، فلا يذهب مذهب أصحاب المعانى كما لا يذهب مذاهب أصحاب اللفظ ،وإنما يريد شعره جامعاً للمعنى الرائع الطريف ، واللفظ الجزل الحسن ، وهذا أفضل الشعر . والشعر والفن جميعاً عند الشارف غذاء العقل والروح معاً ، فالبيان سحر وفتون ، وإعجاز فى المعانى والألفاظ والمشاعر والأحاسيس وفى ذلك كله غذاء للعقل والروح جميعا .

ويبين شاعرنا أثر الشعر فى الوجدان الشعبى ، فيرى أنه يثير المشاعر الراقدة ويوقظ الأحاسيس الخامدة ، يرقق هذه ، ويرهف تلك ، ويبعث على الحماسة والنهوض . هكذا فهم الشارف الشعر وهكذا أراد له أن يكون ، فهل جاء شعره مصدقا لنظرته هذه ، ومؤيدا لإرادته تلك ؟

عاش الشارف حياة مديدة جعلته يعاصر ظروفا متباينة ، وأحداثا متواكبة ، شهد عصر الترك والطليان ، كما شهد عصر الاستقلال ، وبينها من الاختلافات والتباين فى أساليب الحكم والحياة والفكر ، مايؤثر تأثيرا كبيرا على النفوس، فما بالك بنفوس الشعراء والأدباء ؟

مثل هذه الظروف تولد كثيرا من قلق ، وكثيرا من حيرة ، كما تبعث على النظر والتأمل الذى يفضى إما إلى مشاركة إيجابية فى هذه الأحداث التى تمر بها البلاد ، وذلك بالتشخيص والعلاج ، وإبداء الرأى والنصح ، وإما إلى سلبية وانسحاب إلى الذات ، إلى رجاء ويأس ، وبكاء وتحسر ، وشكوى وحنين ، وقد جمع شاعرنا بين هذين الاتجاهين فنراه تارة مشاركا أمته فى جهادها ونضالها ، ونراه تارة أخرى موثرا الشكوى والحنين ،واجترار الآلام والآمال ، وقد يفسر موقفه هذا

ما ألمحنا إليه — قبل — من حرصه على الوظيفة واضطراره إلى مهادنة الاحتلال ، فهو حريص على الجهاد والنضال وتنبيه أمته عندما يكون فى مأمن من المحتل ، وهو منسحب إلى ذاته عندما يقسو عليه العدو ، ويسجنه ، أو ينحيه عن وظيفته .

والحق أن شاعرنا خاض المعترك السياسى ، والمعترك الاجتماعى ، لافى ليبيا وحدها ، ولكن فى البلاد العربية جمعاء ، لايدفعه إلى ذلك سوى الحب الصادق لقومه ولأشقائه العرب ،وغيرته على وطنه وعروبته :

ياجارة الحى لاتزرى بعاصفة من الملام على التقصير فى الطلب
لاتعذليني إذا ماقمت مندفعاً من ثورة الحب أومن ثورة الغضب (١٠)

وهنا نحب أن ننبه إلى أن الشارف لم يكن شاعر المناسبات ، فلابأس من خلو ديوانه من تسجيل الأحداث ، ورصد الأخبار كما تفعل الصحف السيارة ، انه آمن أن رسالته هى المشاركة الفعالة فى أحداث أمته ، وذلك عن طريق النظر والتأمل ليعرف موطن الداء ، فيصف الدواء .

وهاهوذا يستثير حمية قومه ، ويبعث فيهم روح الحماسة ، وينفرهم من الذل والاستعباد ، مبينا أن النصر مع المؤمنين وإن كانوا قلة لأن الله تعالى معهم :

إن كان للموت يوم لا يؤخره فما القعـــود عن الإقـــدام ينجينا
لابد من أحد الأمرين يصحبنا عزنلاقيه أو مـــوت يلاقينـــا
وحملة القوم لاتثنى عزائمنا عن الكفاح ولو كانوا كثيرينا
قد يخذل الله أقواما وإن كثروا ويمنح الله نصراً للأقلينا(١١)

والأبيات تفيض إيمانا ، وجرأة ، وشجاعة ، ودعوة إلى العزة والكرامة ويؤكد ذلك فى قوله من قصيدة « ضعتم وضعنا » :

وأشبه الناس بالأموات من نشئوا فى عصرهم تحت ضغط المستبدينا
إن الأعزاء من ماتوا بعزهم وما سواهم من القوم الأذلينا(١٢)

ولعل قصيدته «رضينا بحتف النفوس رضينا» أكبر دليل على شعره الحماسى الثورى ، جمعت بين المعنى الثورى ، والسلاسة المحببة والموسيقا الآسرة التى تجعلها تتردد على ألسنة الجماهير المتحمسة الغاضبة ضد العدوان ويبلوّها بقوله :

رضينا بحتف النفوس رضينا ولم نرض أن يعـرف الضيم فينا
ولم نرض بالعيـش إلا عزيزاً ولا نتقى الشر ، بل يتقينا(١٣)

وشاعرنا لايكتفى بمجرد التحميس ، وطلب الحرية دونما استعداد لذلك ، إنه كان واعياً بالظروف المحيطة به ، مدركا الأسباب والمسببات :

ونهضة الشعب أمر لاينفذه إلا التعاضد من أبنائه النجـب
وقوة الصدق فى أعمالنا سبب للنصر والشئ يقوى قوة السبب(١٤)

ويقول حاثاً على التعلم والتثقف بمختلف ألوان المعرفة :

بمناهل التعلـيم تظفر بالمـنى وتصيب من خطط العـلا مرماكا
لم تلق إلا كاتباً ومثقفـا وموظـفا ومحاميـا لحمـاكـا
فإذا جمعت من العلوم كفاية فلك الضمان بأن تشد قواكا (١٥)

ويحذر من زمن الجهل ، ويدعو إلى اتباع أوامر الدين الحنيف والانتهاء عن نواهيه :

الجهل أصبح من أدلة خصمكم والترك والإهمال من حجـاته
الله يعلم أنكم لن تنجحـوا بسوى أوامره ومنتهياته (١٦)

وشاعرنا مغرم بوطنه ، محب له رغم حديث الوشاة ، وكيد الخصوم :

وطنى هوالوطن العزيز أحبه ويحبنى لولا حديث وشاته (١٧)

ولعله يشير فى هذا البيت إلى ماقد تقوله بعض الناس عليه عندما آثر مهادنة المحتل اتقاء لشره ، ودرءا لخطورته ، وحفاظا على شيخوخته ، ومن هنا يؤكد حبه لوطنه مرة ومرة فيقول :

لازلت ياوطنى العزيز أخاكا أهوى هواك وأستميل رضاكا(١٨)

وشاعرنا عندما يهادن العدو لا يواجهه مباشرة ، وإنما يواجهه بطريق غير الطريق ، ومن ثم نراه يلجأ إلى التذكير بالماضى المشرف حفزا للهمم ، وشحذا للعزائم وهى طريقة لاتقل خطرا عن الطريقة المباشرة فى تحميس القوم وحثهم على النضال والثبات فى وجه العدو :

اباك ياشــرقى شــرقا شمسه ... قد توارت وامزج الدمع بــدم
قد تفرقنـــا به أيدى ســبا ... وتركنـــا المجد فى حكــم العدم
حيث لا أمر يلى أمرا ولا ... قدم يمشى على إثر قدم
كيف لانبكى على عهد مضى ... فى ازدياد العلم فى نشر الحكم
أين ذاك العز ؟ أين المنتدى؟ ... أين ذاك الفجر؟ أين المزدحم؟(١٩)

ومن وسائل تحميسه قومه وأمته العربية جمعاء عقد مقارنة بين الماضى والحاضر ينفذ من خلالها إلى هدفه ، وهو توضيح ماعليه قومه وأمته من ضعف وتفرق :

آها وآها لأيام إذا ذكرت ... يوما ذكرنا بها الغر الميامينـــا
بقوة العزم والإيمان قد ربحوا ... ملكاً فما خسروا دنيا ولا دنياً
لولا جهاد مضى منهم وتضحية ... فى الحق لم يجدوا فى الأرض تمكينا
واليوم توجد أوضاع لنا حدثت ... بعيدة الشكل عن أوضاع ماضينا
فى كل مملكة من نفسها شغب ... وكل قطر لنا أضحى فلسطينـــا
نشكو ونصرخ من ظلم ألم بنا ... والظلم لم يأت إلا من مساوينا(٢٠)

وهكذا يسبر شاعرنا كنه أمته ويضع يده على مكمن الداء ، وأس البلاء ، إن مانشكو منه من تأخر وضعف وتفرق واستسلام إنما هو من أنفسنا ، من تخاذلنا ، وتواكلنا ، وتقليدنا الأعمى للغرب ، وتناحرنا فيما بيننا ، ومن هنا نجد شاعرنا يمضى فى إيقاظ قومه عن طريق كشف الأدواء

الكامنة فيهم ، داعياً إياهم لإصلاحها ومداواتها ، يقول مصوراً حال قومه وتناحرهم واختلاف زعمائهم ، وأثرة بعضهم :

ولم نر ما يدعو إلى البؤس والشقا سوى وطن فيه القطيعة والهجر
تهافت آراء وأصداء فتنة فلم يخل منها لو تتبعتها عصر
ولم يخل شعب من حديث مموه فظاهره خير وباطنه شر
لنا أمل فى المصلحين وكلما تداعوا إلى الإصلاح يضطرب الأمر
إذا لم يكن من أنفس القوم وازع وإن زجروا بالقول لا ينفع الزجر

إلى أن يقول مصوراً نفسية هؤلاء الأثرين وما يجره ذلك على البلاد من البلاء :

يريدون شد الأزر والخلف بينهم ودون اتحاد لايشد لهم أزر
ورب قرين كاد يظهر شره جلياً فتخفيه الطلاقة والبشر
يلاقيك بالبشرى وفى النفس حاجة وماتحتها إلا الخديعة والمكر
إذا كان هذا أيها الصحب حالنا ولاغروأن أودى بنا الويل والخسر
أنانية فينا وحب رئاسة «فعولان بالألباب ماتفعل الخمر»

ويمضى فى الكشف عن أسباب التخلف والضعف ، وعلى رأسها العجب بالنفس والميل مع الهوى دونما اعتداد بالمصلحة العامة وحب الوطن فيقول :

يعلمنا مشى الطواويس كبرنا وأقبح شئ من خلائقنا الكبر
ونحن كأغصان تميل مع الهوى كأن علينا لاتباع الهوى نذر

ولا ينسى حبه مصر وشعبها ، وفضلها فى الحفاظ على وحدة الشعب الليبى ونيله استقلاله ، وتدريب جنده ، واستضافة زعمائه ، ووقوفها إلى جانب كل الشعوب العربية الشقيقة فى نضالها :

ولولا تأسينا بمصر ونيلها وجامعها الأعلى لضاق بنا الصدر
إذا ما أفضنا فى حديث ممتع فأول ما يغشى مسامعنا مصر
أبى الله إلا أن يبين أنها كنانته فى أرضه ولها الفخر
يحس بآلام العروبة شعبها ويوجعها ألا يكون لها أمر
تحب من الأقطار كل شقيقة لمصر ومن فى مصر ياحبذا القطر (٢١)

والشارف محب لأمته العربية جمعاء ، يحن إليها ، ويرجو وحدتها وعزتها :

من مبلغ عنى حديث غرامى ولطيف أشواقى وفرط هيامى
يلقى على الحرمين خير تحية ويبثها لأشاوس الأقوام
ويمر منعرجا ومنعطفا على ذاك المقام وفوق كل مقام
ويعود بالأشواق يخترق الفلا لبلاد مصر أو بلاد الشام
ويحث منها للعراق نزوعه ويبث فى دار السلام سلامى(٢٢)

وهكذا رأينا الشارف مشاركا أمته فى نضالها ، عاملا على تقدمها ونهوضها بالتحميس المباشر تارة ، وبالتذكير بالماضى المشرف تارة ثانية ، وبالدعوة إلى اطراح أسباب التخلف والتناحر ، والأخذ بأسباب التقدم والنهوض والاتحاد تارة أخرى . لاتدفعه إلى ذلك سوى عاطفة نبيلة صادقة ، عاطفة وطنية قومية ، أملتها عليه نشأته الدينية الداعية إلى العزة والقوة،وحبه وطنه وأمته الذى جعله حريصاً على تقدمه ونهوضه ووحدته .

وإذا كان الشارف شاعر الوطن والقومية بما أسهم فى قضايا أمته ومجتمعه فإنه قصر فى ميدان آخر للوطنية لايقل عن ميدان الحث على التحرير، والنهوض الاجتماعى والخلقى،ذلك هو ميدان وصف طبيعة بلاده ، ورسم مفاتنها الخلابة ، ومرائيها الساحرة وشواطئها الممتدة ، ومتاهاتها الشاسعة ، وواحاتها اليانعة ، وجبالها الخضر وسهولها المنبسطة ، وعيونها الجارية ، وطيورها المغردة ، وسمائها الصافية . إن ليبيا بصيفها وشتائها ، وخريفها وربيعها ، وماضيها وحاضرها ، لم تلهم شاعرنا الشارف إلا قصيدة يتيمة فريدة ، وهى ليست فريدة فى بابها وموضوعها ، ولكن فى ديوان شاعرنا ، وهى قصيدة « الصحراء والإنسان» أو «بين فلسفة الطبيعة والنفس» ص ٢٠٨ وهى ليست وصفا خالصاً للصحراء والطبيعة ، ولكنها مزيج من وصف الصحراء والنقد الاجتماعى ، ونحن لاننكر عليه هذا المزيج ، فهو شئ طريف ، غير أن إسرافه فى نقد أخلاق عصره ، وبثه الحكم والأمثال فيها أصابها بشئ من التفكك ، وخلع عليها مسحة الوعظ

والخطابية ، والحق أنك لاتحظى من الستة والخمسين بيتاً وهى قوام القصيدة ، لاتحظى منها إلابخمسة عشر فى وصف الطبيعة ، وهو وصف جميل وجديد ، رسم فيه الشاعر صورة سريعة للصحراء واتساعها ، وحيوانها ، ولكنه يسارع بربط الطبيعة بالإنسان ربطاً جيداً فيقول :

وقد شذ فيها عنصر غير طيب ... وكم عنصر فينا خبيث وطيب
وحوش بها شتى ولكن قويها ... على ضعفاء الجنس لايتغلب
وحوش ولم يعرف لديها تحزب ... وهل فى بنى الإنسان إلا التحزب
تعيش بلا عقل وليست مسيئة ... وكم عاقل فينا مسئ ومذنب(٢٣)

وهذا ربط بديع بين الطبيعة والإنسان ، وتشخيص لمظاهر الطبيعة ، وتحليل لنفسية الإنسان ، وكنا نود أن يكثر من هذا الشعر الذى لايصدر إلا عن إعجاب بالجمال والكمال ، وصدق نظر ، وعمق تأمل ، وتحليق فى الخيال ، ولست أرى تعليلا لانصراف شاعرنا عن هذا اللون من الشعر سوى تأثره بالقدامى ومختاراتهم التى خلت من وصف الطبيعة فقد أهمل القدماء هذا الفن الرفيع ولم يجئ إلا فى ثنايا قصائدهم ، كما أنهم لم يحاولوا استكناه الطبيعة ، ولم يشخصوها . وقد أضيف إلى ذلك سببا آخر وهو دنو خيال الشارف ، وعدم تحليقه بحيث يعينه على التشخيص ، والرسم ، والتصوير وبث الحركة والحياة فى اللوحات التى ينقل فيها مظاهر الجمال والكمال .

ويتصل بهذا الميدان ، وصف الآثار ، والحديث عن الأمجاد القديمة ورسم مشاهد التاريخ فذلك كله من صميم الشعر الوطنى القديم ، لأن آثارنا وتاريخنا وأمجادنا القديمة جزء من حضارتنا ، وحياتنا ، ولكن شاعرنا الشارف لم تلهمه ليبيا بآثارها الإغريقية فى برقة ، والفينيقية فى طرابلس والرومانية والإسلامية فى أقطارها المتعددة وأرجائها الفسيحة ، كما فى فى « شحات » و « أجدابيا » و « صبراتة » و «ولبدة» وغيرها ، كل هذه الآثار التى يأتيها السائحون من أقصى العالم لم تلهم شاعرنا شيئا ، وهى على

الرغم من تعددها ، وانتشارها ، فانى أشك فى أن يكون شاعرنا قد وقف عندها وما له وهذه الأماكن الخربة ، والأعمدة المتفردة ، والمسارح العتيقة ، ماالهذا القاضى الفقيه وآثار الغابرين؟ ، إنها لاتعنيه فى شئ ، ولا تحرك فيه ساكناً ، ولاتثير شعوراً ومن ثم كيف له أن يرسمها ، ويستخلص العظة والعبرة منها ، وكيف له أن يستحضر أهلها وأصحابها وتاريخها ؟ وأنى له الخيال الذى يحلق به فى هذه الأجواء السحيقة التى لا يعرف أهلها ، ولايدرك أسرار حياتهم ؟ . ومن هنا نراه إذا حوم حول هذا المعنى انقطع نفسه إلى التعميم والإطلاق :

ونحن فروع زكت من أصول فنحى مآثرنا ماحيينا
لتاريخ عنصرنا فى الورى حديث على صفحات السنينا(٢٤)

ما مآثرنا ؟ وما تاريخنا الخالد ؟ إنه لايذكر منه شيئا ، أو لايستطيع أن يصور هذا الذى يذكره إلا على طريقة القدماء فى التعميم ، والبعد عن التفصيل والتحليل والتعليل ، وإنى لأستبعد ضياع شعره فى هذا الفن ، لأنه ليس من المسلم به ضياع هذا الشعر دون غيره من هذه الآثار الشعرية المختلفة فى كل الأغراض .

وإذا كان شاعرنا قد قصر فى شعر الطبيعة والآثار ، فإنه قد وفى فى شعر الغزل والأشواق ، وإنه لأكبر أبواب شعره فى ديوانه المنشور ، وقد ندهش لذلك ونعجب ، فما للشيخ الفاضل ، والفقيه العالم ، والقاضى المسئول ، ماله وللغزل والأشواق والحب والغرام ؟ فهل قال فى الغزل على سبيل المحاكاة والاتباع ، أولأنه أراد ألايخلو ديوانه من هذا الباب الرقيق ؟ أو تراه قال فى الغزل نتيجة تجربة فى الحب صادقة وشعور بالعشق صحيح ؟ أعتقد أن شعر الشاعر هو الذى يجيب على هذه الأسئلة لأنه تصوير لحياة الشاعر وسلوكه ، ومشاعره .

يقول شاعرنا :

لسانى على ذكر الهوى معقود — وقلبى على دين المحبة قد نشا(٢٥)

ويقول :

أهيم بكل سحر بابلى — وأشطح فى الغرام بصوت «معبد»(٢٦)

ويقول

الله يعلم والكواكب تشهد — أنى بذكر جمالهم أتهجد
ولقد شهدت جمالكم بين الورى — نورا يضىء كما يضىء الفرقد
مادمت حيا فالحياة سعيدة — فإذا قتلت فإننى مستشهد(٢٧)

نرى شاعرنا وقد تعود على الهوى والغرام ، عقيدته الحب ، ويهيم بالسحر والجمال ويتهجد فى جمال محبوبته ، ويعبد الله تعالى فى حسنها ،وهو يرحب بالموت فى سبيل هذا الحب ، ويرى فى ذلك لوناً من الاستشهاد فهل بعد ذلك نزعم أنه محاك فى الحب متبع فى الهوى ؟

تأمل قوله وقد توجه إلى الله عز وجل فى ضراعة وخشوع يدعوه أن يرعى العشاق من إنس وجان ، لأن الحب مكرمة يرتضيها المولى :

يا إله الأرض يارب السما — جد مما تسد يه من فضل ومن
وانظر اللهم بالعطف على — سائر العشاق من إنس وجن

هاهو ذا شاعرنا قد أحب ، فأى ألوان الحب قد استهواه ، وملك عليه شغاف قلبه ؟ أهو الحب الحسى المادى الذى يدفع إلى كشف العورات ، واشتهاء الأجساد والتصريح باللقاءات ، أم الحب العذرى الذى يدعو إلى إلى السمو بالنفس ، ووصف مشاعر الروح ، والحديث عن ألم الصد ، وقساوة الهجر ؟

الحق أن الذى يتأمل شعر الشارف فى الغزل يقف على تجارب غزلية صادقة تنبئ عن حب عذرى عفيف ، لقى فى سبيله العنت والصد والهجر ، والذل والبعد .

يامزريــــا بحيــــاتى — ومستخفاً بحـــــالى
وتاركى فى هيـــامى — من فتنة وجمـــال
لازال حبــك ملهـــى — ومسرحـــا لخيـــالى
كم بت أنــدب حظــى — من هجرك المتـــوالى

ويمضى فى وصف لوعة الصد ،وقسوة الهجر ، إلى أن يقول فى رقة وعذوبة واستعطاف :

علمت أنك ســـال ولست عنـك بســال
مارمت عنـك وصـالا إلا كرهـت وصـالى
إن ملت نحـو يمـين تميـل نحـو شمال
كم بات قلبى شجيا وبات قلبـك خال
أكان ذا منـك صـدا أم كان محض دلال (٢٨)

هكذا فى موسيقا حلوة ، ولفظ رقيق ، ومشاعر صادقة ، يصوغ عتابه ، وذوب نفسه وروحه ، أليس شاعر الغزل العفيف ؟ وهل كان يمكن أن يكون غير ذلك وهو القاضى الفاضل ، والفقيه المرموق ؟ .

وعلى الرغم من صدق هذا الغزل ، تجد شاعرنا ينهج فيه نهج القدماء ، فها هو ذا يناجى النسيم ، ويستخبره خبر أحبته :

نسيم الصبا أخبر فأنت رسولهم وكل رسول ليس ينطق عن هوى
فلم يكفنى إلا حديث رويته وأنت لدى العشاق أحسن من روى (٢٩)

ولطف هذا النسيم ورقته تحكى شمائل حبيبته ورقتها :

لطف النسيم إذا يوما تخللهم يود لو أنه يحكى شمائلهم (٣٠)

وهو يهتز بالبارق ، ويثيره نواح الورقاء والقمرى :

أهتز من بارق إذا مـا غدا على أرضكم يلوح (٣١)

ويذهب إلى أبعد من ذلك ، فيشبه حبيبته بالظبى ، ويذكر الأماكن والوديان القديمة :

ظبيات قاع والفؤاد كناسها ولكن لها بالرقمتين مراتع
وكم روضة بالجزع بات سحابها يجود علينا والبروق لوامع
منازلهم قلبى وهم فى ديارهم وكيف وصولى والديار شواسع (٣٢)

ويخاطب حبيبته بصيغة الجمع ، وهم عيونه وسادته :

أنتم عيوني فلم أنظر لغيركم ... وليس لي من عيوني –سادتي– بدل(٣٣)

يلجأ إلى ذلك خشية التصريح باسم الحبيبة وبخاصة في بيئة محافظة ، أو لأنه يخشى عذل العذال ، ولوم الخصوم :

أما آن للعذال أن يقبلوا عذري ... وقد علموا يا صاح أن الهوى عذري(٣٤)

ويمكن القول إن غزل الشارف جاء مقطوعات تصلح للغناء ، لأنه لم يطل فيها نفسه كما أنه لم يبتكر فيه المعاني والصور التي تتناسب وذوق العصر الحديث ، ومنزلة المرأة فيه ، إنه وقف عند حدود المحافظة والاتباع التي سادت أوائل القرن العشرين ، ولم يتطور مع الزمان ، وربما كان الشارف صادقا في موقفه هذا ، لأن المرأة الليبية ظلت محافظة ، لم تعرف السفور إلا في وقت متأخر ، لم يشهده الشارف أو لم يطلع عليه غير أنه كان يمكنه أن يمزج هذا الغزل بالشكوى أو الطبيعة أو التأمل ، فيبتعد عما ألفناه من القول في الشوق والهجر ، والصد ، ومفاتن الحبيب .

عرضنا لجانب الطبع في شعر الشارف ، والذى تمثل في التعبير عن واقعه وتصوير أحداث أمته ، وإسهامه في نضالها ، ومشاركته في حل مشكلاتها ، كما تمثل في التعبير عن ذاته ، وتصوير حبه ، وعشقه ، وآماله وها نحن نعرض لجانب آخر من جوانب شاعرية الشارف يمكن أن نطلق عليه جانب « الصنعة » .

وإن لم يكن كذلك ، فماذا تسمى هذا الشعر ؟:

خذوا من اللغات بالقسط الأهم ... واستخرجوها باللسان والقلم(٣٥)

أو قوله :

اعمل لنفسك صالحا ... واختر لغيرك ماتحب
وادفع عدوك بالأنا ... ة ودع محاولة الشغب (٣٦)

وغير ذلك مما ورد فى باب الحكم والأمثال . إنه شعر الصنعة ، ورياضة الذهن على القول ، وترجمة الأفكار فى كلام موزون ومقفى دون أن يمر بمصفاة الوجدان ، أو يصدر عن تجربة صادقة وإحساس صحيح ، وشتان مابين شعر الطبع وشعر الصنعة .

ويدخل فى هذا الباب شعر التقاريظ (٣٧) ، وشعر المحسنات اللفظية ، والتشطير والتخميس (٣٨) ، وباب الصوفيات فى شعر الشارف تشطيراً وتخميساً كله ، وليس أدخل فى باب الصنعة من شعر التاريخ ، وهو أن يؤرخ الشاعر حادثة بأن يكون مجموع أحرف بيت أو شطرة من بيت بالحساب العددى المقابل للحروف الهجائية مساويا للتاريخ المقصود ، كقوله فى تقريظ كتاب « مصطفى الكعبازى » مؤرخاً صدوره :

ولقد غدا للناس فى تاريخها فخر يدوم لمصطفى الكعبازى (٣٩)

ومجموعها هو ١٣٤٠ وهى سنة صدور الكتاب . وهذا هو التكلف بعينه والصنعة اللفظية ذاتها ، ومن مظاهر صنعته ومحاكاته — كذلك — غرامه بالاستشهاد بشعر القدماء أو معارضته إياهم ، ومن شعر المحاكاة عنده مدائحه النبوية التى نقرؤها فلا نقف فيها على معنى جديد ، أو لفتة إنسانية فى أخلاق الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحياته وسيرته زوجا وقائداً ومجاهدا وصديقاً ومعلماً ونبيا ، إنما نجد المعانى المطروقة : المكرورة :

إذا رمت من بحر الطويل جواهرا فمدح النبى المصطفى جوهر الكلم
نبى الهدى كنز المعارف والتقى ومعدن أسرار البلاغة والحكم (٤٠)

كنا نتوقع أن يعمق هذا العالم الفقيه ، القاضى الأديب هذا الباب الذى برز فيه حسان بن ثابت وكعب بن زهير والنابغة الجعدى والبوصيرى وشوقى ، ولكن شاعرنا الشارف اكتفى بالسرد والمحاكاة ، لا أقول إنها العاطفة الفاترة أو الإحساس الضئيل ، وإنما هو قلة الثقافة ، وضعف الاطلاع ، والانغلاق على الذات .

إن « الشارف » على الرغم من حياته المديدة ، ظل مخلصا لنشأته الأولى وثقافته البكر التى كانت شائعة فى أواخر القرن الماضى ، وهى ثقافة محدودة لم يشأ شاعرنا إثراءها وتجديدها بالتيارات الفكرية التى شهدها عصره المديد ، لقد ظل على وفائه لثقافته المحدودة لم يعمقها ، كما ظل على وفائه لموهبته الشعرية لم يصقلها بالتجارب الجديدة فى شعر المهجر وشعر جماعة الديوان ، وشعر أبولو ، وشعر المدرسة المتحررة فضلا على النماذج الإبداعية التى ترجمها كبار الأدباء ، وشاعت على صفحات الصحف والمجلات . ومن هنا كان « الشارف » أحد تلاميذ المدرسة المحافظة الكلاسيكية التى رادها محمود سامى البارودى ، فحافظ على الوزن والقافية ، وعلى بناء القصيدة ، ووحدة البيت ، والنزعة التقريرية ، مع نزوع إلى رقة اللفظ ، والبعد عن التقعر فى اللغة ، والإحالة ، وكان تفاعله مع أحداث أمته تفاعلا مع مذهبه واتجاهه ، فقد أسهم فيها بالتسجيل والتعليق الذى ينفى عنه جموده وجحوده. وبعد فإننا لانلوم الشاعر على محافظته وعدم تجدده بقدر مانلوم البيئة التى عاش فيها ، هذه البيئة التى تخلفت عن ركب التطور والتجديد والمعاصرة نتيجة الاستبداد السياسى والاحتلال العسكرى ، والصراعات التى مزقت هذا البلد العزيز فيما قبل الاستقلال التام .

ومهما يكن من شيء، فقد كان الشارف — بحق — شيخ الشعراء فى ليبيا ، أسهم هو وزميله الشاعر أحمد رفيق المهدوى فى وضع حجر الأساس للشعر العربى فى ليبيا بعد ماأصابه الضعف فى فترات التخلف الفكرى إبان الحكم العثمانى وشاركا بهفى استقلالها ونهوضها، حتى تيسرت ظروف التجدد والانفتاح على الفكر العالمى فكان الجيل الجديد من الأدباء جيل الثورة والتجديد.

د . ثابت محمد بدارى

المصادر والمراجع

(١) لمحات أدبية عن ليبيا – علي مصطفى المصراتي – طرابلس الغرب ١٩٥٦ ص ١٥٥

(٢) الحياة الأدبيه في ليبيا – د . طه الحاجري ص ١٢١ – معهد الدرسات العربية العالية ١٩٦٢ ومقدمة ديوان الشارف ص ٩ – بيروت ١٩٦٣

(٣) مقدمة الديوان – علي مصطفى المصراتي ، ص ٥

(٤) أعلام ليبيا – طاهر أحمد الزاوي ص ٦٩ – مكتبة الفرجاني بطرابلس الغرب ١٩٦١

(٥) أعلام ليبيا ص ص ٦٩ و ٧٠ – الحياة الأدبية في ليبيا ص ص ١٢٠ – ١٢١ والاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث ، ص ص ٣٨١ – ٣٨٢ ، د . محمد الصادق عفيفي – دار الكشا بيروت ١٩٦٩

(٦) مقدمة الديوان ص ٣٩

(٧) الحياة الأدبية في ليبيا ص ١٢٢

(٨) الديوان ص ٢٠٠

(٩) الديوان ١٩٨

(١٠) الديوان ص ٩٥

(١١) الديوان ص ٨٩

(١٢) الديوان ص ١٠٥

(١٣) الديوان ص ٨٣

(١٤) الديوان ص ٩٠
(١٥) الديوان ص ٨٦
(١٦) الديوان ص ٧٦
(١٧) الديوان ص ٧٥
(١٨) الديوان ص ٨٥
(١٩) الديوان ص ٨٧
(٢٠) الديوان ص ١٠٥
(٢١) الديوان ص ٩١ — ٩٢
(٢٢) الديوان ص ٨١
(٢٣) الديوان ص ٢٠٨
(٢٤) الديوان ص ٨٣
(٢٥) الديوان ص ١٣٠
(٢٦) الديوان ص ١٣٣
(٢٧) الديوان ص ١٥٧
(٢٨) الديوان ص ١٤٧
(٢٩) الديوان ص ١٥٤
(٣٠) الديوان ص ١٦٦
(٣١) الديوان ص ١٧١
(٣٢) الديوان ص ١٥٦
(٣٣) الديوان ص ١٦٤
(٣٤) الديوان ص ١٥٤
(٣٥) الديوان ص ٢٠٣
(٣٦) الديوان ص ٢٨١
(٣٧) الديوان ص ٢٨٦ — ٢٨٧
(٣٨) الديوان ص ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٢٨، ٢٦٤ ، ٢٦٥، ٢٦٦
(٣٩) الديوان ص ٢٨٧
(٤٠) الديوان ص ٢٨٢